العنبكي ينفي التهم الموجهة إلى لغة الضاد

دعوات تيسير النحو تكرار لآراء قديمة

عصام عبد العزيز المعموري

كثيرةٌ هي التهم الموجهة إلى لغة الضاد، منها أن اللغة الفصحى ابتعدت عن الحياة وأنها عاجزة عن مواكبتها فبرز نتيجة لذلك دعوات عديدة للتيسير النحوي ودعوات إلى إلغاء الإعراب، وواجه المتصدون لمهمة تطوير اللغة هدفين أولهما الاقتراب من اللغة العامية وثانيهما القطيعة مع الفصحى لغة القرآن، وعن هذه الدعوات وطروحات المؤيدين والمعارضين وعن كيفية الارتقاء بتدريس اللغة العربية في مدارسنا نحواً وبلاغةً وصرفاً وأدباً كان لنا هذا الحوار مع الأستاذ المساعد الدكتور (علي عبد الله حسين العنبكي) التدريسي في قسم اللغة العربية – كلية التربية/ الأصمعي – جامعة ديالى الذي تشير سيرته الذاتية والعلمية إلى أنه ولد في قضاء الخالص محافظة ديالى عام **1952**م، وتخرج في قسم اللغة العربية بكلية الآداب–جامعة بغداد عام **1975–1976**م.

بغداد

وحصل على شهادة الماجستير في قسم اللغة العربية بكلية الآداب– الجامعة المستنصرية عن رسالته الموسومة بـ(الحمل على المعنى في العربية) عام 1986م. وحصل على شهادة الدكتوراه في قسم اللغة العربية بكلية الآداب–جامعة بغداد عن أطروحته الموسومة بـ(الرد إلى الاصل في النحو والصرف) عام 1992م. وعيّن مدرساً على ملاك وزارة التربية والتعليم من عام 1978–1991م. ونقل إلى ملاك وزارة التعليم العالي والبحث العلمي عام 1991م. وعمل تدريسياً في العديد من الجامعات العربية وله كتب منشورة منها:

البناء اللغوي في الفواصل القرآنية/ دار صفاء/ عمّان/ 2011م.

ظاهرة رد الرواية الشعرية عند المبرد/ دار الرضوان/ عمّان/ 2011م.

اللهجات العربية في الضرورة الشعرية/ دار صفاء/ عمّان/ 2011م.

وقد بدأ الحوار معه بهذا السؤال

□ لقد شهدت السنوات الأخيرة تراجعاً مخيفاً للغة العربية الفصحى وتقدماً مذهلاً للعامية يقولون أن الفصحى ابتعدت عن الحياة وأن العامية باتت هي لغة الحياة اليومية الدافئة، وأن الذي يقرر موت لغة أو نشوء لغة ليس القرار السياسي أو الحكومي، بل حركة الحياة نفسها.. هل ترى أن اللغة العربية الفصحى عاجزة الآن عن مواكبة الحياة؟ أم أن هنالك مؤامرة في ذلك تربط الإرهاب باللغة العربة الفصحى لكونها لغة القرآن؟

لقد تعهد الله بحفظ كتابه العزيز من التغيير والتبديل فقال:

إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون]الحجر: 9]

وحفظ القرآن حفظ للغة العربية، لأن القرآن الكريم نزل بهذه اللغة المباركة، فالعربية باقية ما بقي القرآن، ولن يفترقا إلى يوم القيامة. فالعربية نزل بها أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحبّ العربية، عُني بها وثابر عليها، وصرف همّتهُ إليها، إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين.

وبهذه اللغة العربية الفصحى تحدى القرآن الكريم البشرية جمعاء في أن يأتوا بمثل هذا القرآن. فلمّا عجزوا عن ذلك خاطب ? رسوله الكريم ? بقوله: ((قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا))]الإسراء: 88].

فاللغة العربية ليست عاجزةً اليوم عن مواصلة الحياة، فهي لغة حية تنبض بعوامل الحياة والنموّ وتتمتع بالخصائص التي تبعث فيها الحياة المتجددة كالإعراب والاشتقاق والنحت والتعريب والقياس وغير ذلك.

ولم تتراجع اللغة العربية الفصحى، ولم تتقدم العامية عليها؛ إذ لم تلق تلك الدعوات التي أطلقها من لهم حاجة في أنفسهم استجابةً وأذناً مصغية، بل ولدت تلك الدعوات تحمل أسباب موتها واندثارها.

وأعتقد أن تلك الدعوات والمحاولات الداعية إلى العامية دعوات باطلة ويائسة تهدف إلى القضاء على الفصحى لكونها لغة القرآن الكريم؛ لأن هؤلاء الدعاة لم يستطيعوا النيل من القرآن الكريم بطريقة مباشرة، فوجهوا ضرباتهم وسهامهم إلى اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم.

□ هل يمكن أن يكون تعلم اللهجات معززاً للعربية الفصحى؟ وكيف؟

– هناك فرق بين الدعوة إلى اتخاذ اللهجة العامية لغة التحدث والكتابة، وبين دراسة اللهجة العامية. فالأولى دراسة ضارّة وهدامة، أما الثانية فهي نشاط علمي يتصل باللغة، وله أثره في فهم الفصحى من الجانب التاريخي والوصفي، لأن العربية الفصحى كانت مؤلفة من عدد من اللهجات القديمة التي تعرف باللغات، ومن هذه اللهجات أو اللغات تكونت العربية الفصحى. فالعربية الفصحى ليست لغة قريش وحدها، بل كانت لغة قريش هي النهر الواسع الذي كانت اللغات الأخرى أو الروافد تصب فيه. فدراسة هذه اللغات هي دراسة للفصحى، ولذلك ظهرت دراسات اهتمت بدراسة اللغات (اللهجات) العربية. من تلك الدراسات على سبيل المثال لا الحصر: **في اللهجات العربية/ د. إبراهيم أنيس، واللهجات العربية في التراث/ د. احمد علم الدين الجندي، واللهجات العربية في القراءات القرآنية/ د. عبده الراجحي، واللهجات وأسلوب دراستها/ د. أنيس فريحة، وفي اللهجات العربية القديمة/ د. إبراهيم السامرائي، ولهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة/ د. غالب المطلبي، ولهجة قبيلة أسد/ د. علي ناصر غالب، ولغة قريش دراسة في اللهجة والأداء/ د. مهدي الغانمي.**

□ هنالك شئ في علم المنطق يسمى الدور والتسلسل، هل أن اللغة هي نتيجة الواقع اللغوي أم أن الواقع اللغوي هو نتيجة اختيارات أو بدائل (عامية أو فصحى)؟

–هناك نظريات كثيرة في أصل اللغة ونشأتها، فمن العلماء من يرى أن اللغة توقيفية أي: هي من الله ? اعتماداً على الآية الكريمة : ((وعلّم آدم الأسماء كلها)) ..(البقرة: 31)

ومنهم من يرى أنها مواضعة واصطلاح، ومنهم من ينسب نشأتها إلى محاكاة الأصوات الطبيعية، وغير ذلك من النظريات التي لسنا بصددها الآن. لكنّ أهم ما يمكن الأخذ به من هذه النظريات أن اللغة ظاهرة اجتماعية تنشأ في المجتمع وتترعرع فيه، ولذلك لمّا كان العرب يمتلكون ناحية الفصاحة والبلاغة تحداهم القرآن الكريم بهذا الجانب، إذ كانت الفصحى هي لغة العرب آنذاك -وإن كانت هذه الفصحى تختلف من قبيلة إلى أخرى بسبب عوامل القرب أو البعد من الشعوب التي كانت مجاورة لهم، فتأثروا أحياناً بهذه الشعوب وبلغاتها.

لقد كانت الفصحى تجري في دمائهم وعروقهم فتنهال الكلمات انهيالاً وتنثال انثيالاً. لكن الظروف اختلفت حينما اختلط العرب بغيرهم من الأمم وعندما تفرقوا في الأرض فأخذت الفصحى تضعف عندهم، وأخذت العامية تحلّ محلّها في كثير من المواطن وانحسرت الفصحى فأصبحت مقتصرة على لغة الخطاب الرسمي والمناسبات الدينية والاجتماعية.

□ هنالك دعوات قامت مؤخراً لتيسير قواعد اللغة العربية، فهي لا تدعوا إلى عامية أو محكية من نوع ما، دعا إليه في مصر سلامة موسى ولويس عوض وما دعا إليه في لبنان أنيس قريحة وسعيد عقل، ويقود هذه الحملة (شريف الشوباشي) في كتابه الأخير (لتحيا اللغة العربية/ يسقط سيبويه) وكذلك يوسف الخال حيث يدعون إلى ما يسموه (تبسيط في اللغة حتى لا تواجه أزمة طاحنة تعرضها للخطر)ورأي (الخال) أن المعضلة التي ستواجه الذين يتصدون لمهمة تطوير اللغة تتمثل في هدفين اثنين أولهما الاقتراب من اللغة العامية وثانيهما القطعة مع الفصحى لغة القرآن والحروب التي مارسها العرب خلال القرون الماضية؟ هل تقف مع دعاة التيسر؟ أم تعارض؟ وما حججك في ذلك؟

–هنالك ثلاثة اتجاهات فيما يخص اللغة العربية:

اتجاه يرى أنّ الفصحى لا بد من استعمالها في لغة الكتابة والأدب، وأن العامية لا تغني عنها وتؤدي الأداء المطلوب.

اتجاه يرى أن نرتفع بالعامية إلى الفصحى.

اتجاه يرى أن تترك الأمور تجري على مجاريها الطبيعية من غير تدخل مقصود منا.

وقد واجهت العربية الفصحى دعوات إلى العامية ودعوات إلى الكتابة بالحروف اللاتينية ودعوات إلى التيسير النحوي ودعوات إلى إلغاء الإعراب الذي هو أهم سمة من سمات العربية. وهذه الدعوات كلها دعوات مغرضة لا يراد بها وجه الله، بل الهدف منها قطع الصلة بين البلاد العربية لتكون لكل قطر لغة محلية خاصة به. وتهدف كذلك إلى قطع الصلة بين الأجيال القادمة وبين معرفة التراث العربي وفهمه. وكان للمستشرقين أثر واضح في هذه الدعوات لتحويل اللغة العربية إلى لغة ممسوخة ليست من العربية في شئ.إنّ محاولات هؤلاء الدعاة كان نصيبها الفشل الذريع، إذ ماتت حين ولادتها، ولم تلقَ صدىً أو تطبيقاً على الواقع اللغوي؛ لأن أصحابها كانوا: ((يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون)))التوبة: 32].

أما دعوات تيسير النحو العربي فهي ترديد لآراء الكوفيين ولآراء ابن مضاء القرطبي في كتابه (الرد على النحاة) الذي دعا إلى:

إلغاء نظرية العامل.

إلغاء العلل الثواني والثوالث.

إلغاء القياس.

إلغاء التمارين غير العملية.

يضاف إلى ذلك آراء أخرى للمحدثين فالدكتور شوقي ضيف الذي دعا إلى إلغاء بعض الأبواب النحوية، ودمج بعضها ببعض وإلغاء الإعراب التقديري وغير ذلك. ولست أرفض محاولات التيسير من حيث المبدأ؛ ذلك أن كتب النحو احتوت على الغث والسمين، وتعددت فيها الآراء والتأويلات والتوجهات. فلا بأس في إعادة النظر فيها، فتبقى القواعد التي تمثل العربية الفصحى المشتركة، ويدرس ما يخص اللهجات دراسة خاصة بها، ويبعد من ذلك الشذوذ والضرورة الشعرية وكلّ ما هو غير قياسيّ، فيحفظ ولا يقاس عليه. وأرى أن يدرس النحو بحسب المستوى العلمي للدارسين، فهنالك المتخصص وهناك المبتدئ، وهذا ما فعله عباس حسن في كتابه القيم (النحو الوافي).

أما دعاة التيسير فلست ادري لمن يوجه تيسيرهم؟ أهو لكل المستويات العلمية أم هو لمستوى واحد هو غير المتخصص.

وهناك ملاحظات على محاولات التيسير هي:

أغلب آراء أصحاب التيسير ترديد لآراء الكوفيين وابن مضاء، وهي لا جديد فيها.

أكثر هذه المحاولات تناولت الفروع لا الأصول.

لم تقدم هذه المحاولات بديلاً لما نقضته.

لم تقدم هذه المحاولات جديداً لما خالفته.

لم تقدم الحجة والدليل لما نقضته وخالفته.

سبق المستشرقون غيرهم إلى هذه المحاولات.

□ كيف يمكن برأيك الارتقاء بتدريس اللغة العربية في مدارسنا نحواً وبلاغةً وصرفاً وأدباً؟

–تعتمد العملية التربوية على ثلاثة أسس تتمثل بالمدرس والمادة والطالب المتلقي، فإذا حصل ائتلاف بين هذه الأركان أو الأسس حصل النجاح، وبعكس ذلك يحصل الإخفاق.

اللغة كلّ لا يمكن تجزئته، فهناك ترابط بين مستويات اللغة المتمثلة بالصوت والصرف والنحو والدلالة التي هي قمة الدراسات اللغوية أما البلاغة فتوفر لنا الجمال والمعاني الثانية. والأدب يوفر لنا المادة التي تعتمد عليها مستويات اللغة. فعلى المدرس أن يكون ملماً بهذه الجوانب والمستويات اللغوية ليكون أداؤه ناجحاً ومفيداً.

علي العنبكي

شكيب كاظم في ضيافة الثقافة للجميع

دون كيخوتة تعود لأصلها بعد إغتراب دام قروناً

ياسين ياس

بغداد

المعروف عند الباحثين ان المؤلفات القيمة قد تنازعها العديد من المؤلفين خاصة من يعثرون على بعض هذه المخطوطات فيضيفون إليها شيئاً من عندياتهم وينسبونها - أحياناً - لأنفسهم خاصة أذا كان المؤلف غير معروف على مستوى الكتابة ولم يشتهر فضلاً عن عزف بعض المؤلفين عن نسبة مؤلفاتهم اليهم ، اما زهداً وعزوفا عن طلب الشهرة أو خوفاً من المجتمع أو خشية من العادات والتقاليد وطقوس الدين ، وهذه الظاهرة ما زالت متوارثة حتى أيامنا هذه ، فكثير ما سطا شعراء على إبداعات الشاعر المدهش عبد الامير الحصيري ، مادين أيديهم نحو جيبه المملوء بالشعر والقصائد والخالي من الفلوس فينشرونها ممهورةً بإسمائهم أو كان هو يبيعها في ساعة انتشاء وساعة خلو جيب !!

هذا ما جاء بمحاضرة الناقد والاديب شكيب كاظم امام حشد من المثقفين والادباء والإعلاميين ضمن جلسة أصبوحة قاعة فؤاد التكرلي الثقافية في جمعية الثقافة للجميع صباح يوم الخميس الخامس من كانون الثاني 2012 ولتصبح هذه الجلسة الاولى مع العام الجديد في فعاليات القاعة ..!

رواية (دون كيخوتة) من كتبها ..؟

كما جاء باعلان لوحة القاعة لكن المحاضر صحح عنوانها (دون كيخوتة) هل كتبها ثربانتيس أم العربي الاندليسي سيدي حامد بن الجيلي ؟

وفي معرض تقديمه لضيف القاعة تحدث الروائي حميد الربيعي مرحباً بالحضور ومعلقاً عن سماع دوي الانفجارات ببغداد وازدياد المشاحنات السياسية .. نتمنى ان تظل مدينتنا تفرح من خلال الحراك الاجتماعي الثقافي ... واليوم نضيف أسماً ليس جديداً لكنه أحد معالم النقد الادبي والبحث ويشتغل بالجمال والفرح والتجدد حول رواية تاريخية ذاع صيتها وصيت كاتبها الذي لم يكن معروفاً فهو جندي متقاعد له ادبيات وتمثيليات وتتلخص رواية (دون كيخوتة) البحث عن الفرسان الذين ينشرون العدل والانتصار لحقوق اليتامى والارامل .. وفيها مفارقات هزلية عديدة والرواية لسعة انتشارها منذ العام 1605 طبعت باللغة الاسبانية (500) طبعة وبالانكليزية (200) مرة وترجمت للعربية عام 1960 ..

ويضيف الربيعي .. ضيفنا شكيب كاظم ولد بكرخ بغداد 8 / مايس 1945 يوم انتهاء الحرب العالمية الثانية وسقوط الطاغية هتلر .. نال شهادة اداب اللغة العربية من الجامعة المستنصرية 1975 له رسالة ماجستير من معهد التاريخ العربي للدراسات العليا (القراءات القرآنية) لم يناقشها ونشرها كتاباً في سوريا عام 2008 نشر اول مقال ادبي عام 1966 في جريدة المنار وواصل النشر لأكثر من (700) مقالة ودراسة في الصحف والمجلات العراقية والعربية .. ومن كتبه المنشورة (مقالات في الثقافة والنقد) العام 2000 وفي نقد القصة والرواية 2001 وفي التراث والثقافة من دار الشؤون الثقافية صدر له (حدثاً في المعنى) عام 2006 وصدر أيضاً (حين تجسر الكتابة) العام 2007 وفي سوريا صدر له (حين يكون التراث مرجعاً وملهماً) 2008 وهناك أيضاً أصدر (التماعات ورئ – مثابات في الادب والفكر) عام 2001 و له كتابان قيد الطبع (والمرء يلقي عصا ترحاله - وابو بكر عياش الاسدي) . في مقدمة محاضرته قال .. ثمة كثير من الظواهر والشخوص والاحداث كانت اخذ ورد وصولاً الى الحقيقة بسبب الغموض الذي اكتنفها والتأويلات التي صاحبتها .. من ذلك شخصية المسرحي والشاعر الانكليزي وليم شكسبير هل هو شخصية حقية أم متوهمة ؟

وتناوله الباحث الدكتور صفاء خلوصي رحمه الله كذلك الامر يثار حول ليوناردو دافنشي مبدع لوحة العشاء الاخير للسيد المسيح وافاض فيها الروائي دان براون في ملحمته الروائية (شفرة دافنشي) التي أثارت الكنسية الكاثوليكية هذه .. وكذلك مبدع لوحة الجيوكندا او الموناليزا اتراها شخصية حقيقية أم متوهمة ؟ والامر ينسحب على ميغيل دي ثربانتس المولود عام 1574 والمتوفى عام 1616 مبدع الرواية العالمية البكر (دون كيخوتة) وعدت رابعة اربع من أعاظم ابداعات القرائح وهي (الالياذة لهوميروس) و (الكوميديا الالهة لداني) و (فاوست جيته) و (دون كيخوته) ترى أهي لمبدعها ثربانتس ام شاركه فيها سيدي حامد بن الجيلي واذ نجد أشارات كثيرة الى ما كتبه هذا الجيلي الذي ترجمه الدكتور عبد الرحمن بدوي .

واضاف .. هناك مؤلفات جاءت الينا تطوي الزمان غير منسوبة لمؤلف معين منها (الف ليلة وليلة) ونجد فيه اجواء بغدادية وبصرية واخرى مصرية وشامية مما يؤكد رحيل هذا الكتاب في صورته الاولى نحو تلك الاصقاع ووقوعه بيد من أضاف اليه وزاد .. رواية دون كيخوتة نقلها للعربية عبد الرحمن بدوي عن الاسبانية مباشرة والمنقولة اليها عن اللغة القشتالية التي كتبت بها أصلاً .. وتقع في (1135) صفحة .. وترد اشارات الى سيدي حامد بن الجيلي بوصفه احد كتاب (دون كيخوتة) وتسألي عن حقيقة كاتبها ما قرأته في كتاب مهم وممتع من الاديب الارجنتيني البرتو ما نغويل الموسوم (يوميات القراءة تاملاً قارئ شغوف في عالم من القراءة) وطبع عام 2008 ونقله للعربية المترجم العراقي المغترب عباس المفرجي .. وانفتح ان مؤلف دون كيخوتة شاركه الجيلي في كتابتها ..!

واستعرض المحاضر كاظم ظاهرة ادب الفروسية في اسبانيا ابان القرن السادس عشر لكن هذه الادب حاربته الكنيسة لجمع شتى كتعاطي السحر والهرطقة . وبالتالي يتم حرق مكتبة دون كيخوتة ..! ويضيف .. تذكرني عملية حرق الكتب بما سبق أن قام به يوسف بن يعقوب تاشفين (580– 595) ه باحراق كتب اصحاب المذاهب الاربعة وامر بالعودة الى الاصول - القرآن والسنة - وترك ما جاء به الائمة الاربعة وعدم التقليد لأي منهم مما يؤكد قدم النزاع بين المشارقة والمغاربة الذي يذكي اوراها في زمننا الحاضر ، فالدكتور محمد عابد الجابري في نقده لفكر المشاركة وعد فكرهم فكر النقل ازاء فكر المغاربة فكر العقل .

ويرى المحاضر بعد سرده لشخصيات شاركت باكمال اقسام الرواية .. نحن ازاء اكثر من شخصية تتنازع ملكية هذا السفر الروائي (ثرفانتيس ، سيدي حامد الجيلي وثالث هو الراهب السفاح لويث الهاجا ..)

ولكثرة الاغلاط في تقسيم فصول الكتاب ولكثرة السهو الذي يقع فيه السارد .. فالرواية كتبها اناس عديدون ولم يكتبها ثربانتيس وحده .. وهي هنا تقترب من الف ليلة وليلة .. واعتقد ان كاتبها هو الجيلي واحتمال تنسبها الى ثربانتيس ربما خوفا او لقاء مال .. او سبب من اسباب الحياة شديدة القسوة على اصحاب العقول والضمائر .. وبالتاريخ كثير ممن نسبوا كتبهم للمشهورين والاغنياء ويعرف ذلك من اختلاف الكتابة لو سطو هؤلاء المشهورين على أفكار المغمورين أو أهدوها لهم .. كما وقع الكتاب الصاحبي في فقه اللغة لمؤلفه أحمد بن فارس واهداه الى الصاحب بن عباد وغيره العشرات.

هذا وشارك الحضور بمداخلات ممتعة ومفيدة واجاب عنها ضيف القاعة بعدها قدمت القاصة الدكتور رغد السهيل هدية رمزية بأسم الجمعية للضيف وسط تصفيق الجمهور .

ملف ثقافي

خاطرة بين الصفحات

الرِّي
قراءة في كتاب الظمأ

مصطفى مزاحم

تكريت

في معظم البحوث التي تناولت ما وصل إلينا من نتاجات الأديب والمفكر العربي أبي حيان التوحيدي، تتكشف لنا بوضوح سمة لا أخالها تخفى على أي مطلّع، وهي سمة النظر العقلي الصرف والتتبع الشديد للحقائق وإيجاد العلل والأسباب في شؤون الحياة كافة. تظهر لنا مؤلفات مثل الإمتاع والمؤانسة، والمقاباسات، والإشارات الإلهية، والهوامل والشوامل، موسوعة علمية على درجة عالية من الإتقان والنظر المنهجي الصائب، وهي تعكس بجلاء طبيعية أبي حيان التوحيدي ونظراته المثلى، والحائرة، نحو النفس والحياة. فهو لا يدع صغيرة أو كبيرة إلا وأعمل فيها الفكر وأثار حولها زوبعة من الأسئلة والاستفسارات للوصول إلى تعليل مقنع يطرح ما سوى العقل من الحكايات أو الخرافات أو الأساطير. هذه النزعة العلمية صاحبت فكر التوحيدي منذ البدايات الأولى التي استطعنا خلالها التعرف عليه، وربما كانت هذه النزعة وراء الكثير من آراء التوحيدي ولا سيما المتعلقة منها بتعاملاته مع الناس، وكذلك ما يخص الجانب الغيبي (الميتافيزيقي)، ويتوضح الأخير في أسئلة مثيرة يطرحها التوحيدي في مسائل مثل الرزق وما إليه. وتبقى البحوث المقدمة كاشفة لنا المزيد من فكر التوحيدي، كونه شخصية متجددة تخترق الزمان فتحاكي العصر وتطرح قضايا ما زلنا حتى يومنا هذا في حيرة منها. في هذا الصدد يأتي كتاب الظمأ للدكتور فائز طه عمر، هاضما لفكر التوحيدي ومكملا سلسلة البحث المنقب في أسرار هذه الشخصية، وهذا الكتاب من الكتب التي تحمل سر تخلقها، وتطرح إجابات طال انتظارها لطبائع غريبة وغامضة في شخصية التوحيدي. وهو أيضا من الكتب التي تعين الباحث كثيرا في تتبع فكر التوحيدي وحصره ي مجالات معلومة تيسر السبيل للباحث لما يمكن أن نسميه تجوزا بتصنيف علوم التوحيدي. والحق أن المؤلف قد أظهر درجة متقدمة في فهم التوحيدي، بعد إدمانه قراءة كتبه في شقيها المتمثلين بالمتعة والبحث معا، ويبدو أن رائد المؤلف في كتابه الأخير هو إعجابه الشديد بشخص التوحيدي، ويظهر هذا الإعجاب في عبارات كثيرة نثرها في كتابه، في وقت عُرف فيه المؤلف بمنهجه الأكاديمي الصارم وحذوه المنهج العلمي الذي يطرح كل ثناء أو مديح سوى الحديث الموضوعي المتجرد من العاطفة والوجدان، لكن هناك ما يبرر للكاتب ذلك إذا فهمنا كتابه وكان لنا إطلاع مسبق على فكر التوحيدي، فلا ريب أن الباحث سوف يقع في حالة من العجب والانبهار، تسوغ له ما كان من شأن المؤلف، فكيف إذا علمناه قد تبحر في كل كتب التوحيدي ولم يدع شاردة من فكره إلا وقع عليها. وكتاب الظمأ هو دراسة في أسئلة التوحيدي التي ألقاها على العالم الجليل مسكويه، وضمها فيما بعد كتابا سماه الهوامل والشوامل، وهي تسمية مجازية لأسئلة التوحيدي (الهوامل) وإجابات مسكويه (الشوامل). أتت هذه الدراسة في شقّين، كان الأول منهما حول المسائل في الهوامل، وقسمه المؤلف في شكل مباحث تناولت أهم هذه الأسئلة، وتتصدرها مسألة الرزق التي نعتها بملكة المسائل، ويسوق لنا فيها سؤال التوحيدي (حدثني عن مسألة هي ملكة المسائل، والجواب عنها أمير الأجوبة، وهي الشجا في الحلق، والقذى في العين، والغصة في الصدر، والوقر على الظهر...)، فيقوم المؤلف بتحليل ودراسة هذا السؤال بصبر وأناة مظهرا عمق تفكير التوحيدي وباعه الطويل في التأمل والبحث، ومن هذه المسألة ينتقل المؤلف إلى مسألة خطيرة أخرى لا تقل عن سابقتها، وهي مسألة التناقض مصدرا لها قوله:(عُرف عن التوحيدي رغبته في معرفة عيوب الناس ومثالبهم، مع مشاعر ذاتية انفعالية عميقة، ونفس حساسة، وشعور بالظلم والغبن بإزاء من كان يحصل على ما يريد من دون استحقاق ولا كفاية، وغير ذلك من عوامل وبواعث جعلت من شخصية التوحيدي شخصية انتقادية حادة)، ويأتي لنا الباحث بأمثلة كثيرة تظهر هذا التناقض الذي يكاد يكون سمة عامة في بني البشر، من خلال أسئلة التوحيدي، والحق أنها أسئلة مثيرة كقوله مثلا: (لمَ تواصى الناس في جميع اللغات والنحل وسائر العادات والملل بالزهد في الدنيا والتقلل منها... هذا مع شدة الحرص والطلب، وإفراط الشره والكَلَب)، وفي كل الأمثلة المقدمة ينبري الباحث بما عُرف عنه من سعة إطلاع واجتهاد دارسا ومستقصيا ومحللا بما لا يترك للمطلع مستغلقا أو غامضا. وتتالى المباحث بعد ذلك ليواجهنا بمبحث وسمه بعنوان (نقد .... نقد) نجد فيه طرائف كثيرة من فكر التوحيدي، والباحث في هذا الموطن لا يني عن تقديم أمثلة كثيرة تشبع فضول القارئ، وتأتي على شكل انتقادات يصوغها التوحيدي في أسئلة أثارت عجب العالم الجليل مسكويه، وهي تثير القراء في كل زمان، ومنها الظلم، ومحبة الإنسان للرئاسة، والكبر، والزهد، وغيرها الكثير. وعلى وفق المنهج المذكور ينتقل الباحث إلى مباحث أخرى وتشمل (أعراف وعادات وطباع)، و (حقائق واجتهادات خاصة)، وأخيرا (مسائل النقد الأدبي والفني) ليكون ختاما للباب الأول أو الشق الأول من الكتاب. إن تقسيم الأسئلة على المباحث المذكورة، تخطيط ذكي من الباحث، صنف لنا معلومات التوحيدي، أو فلنقل فلسفته المختصة بالنفس والواقع المعاش، هذا فضلا عن دراسة شاملة لكل سؤال مطروح بجدارة تتجلى في طرحه المقدمات وصولا إلى النتائج المنطقية، كدأب صاحبه التوحيدي الذي يبدأ في كثير من أسئلته بالجزئيات وصولا إلى الكليات، أو إطلاقه الكل جملة واحدة ثم يجزئه إلى فقرات تحقق الفهم للقارئ، ولولا الإطالة لسقنا الكثير من هذه الأمثلة والشواهد، لأهميتها البالغة، ولأنها تكشف لنا هذا المنحى والأسلوب، ولكن لا غنى من قراءة الكتاب فلا سبيل في هذه العجالة لاحاطة العلم به كاملا، هذا فضلا عن الفائدة المتحققة بعد الانتهاء منه، ويكفي أن نزجي مثلا لما ذكر كقول الباحث:(وثمة سؤالان عن الانتحار، تضمن أحدهما رواية حادثة انتحار، رآها التوحيدي أمامه، مما أثاره فسأل عن جوانب هذا الأمر أي قتل الإنسان نفسه، فكثيرا ما عمد التوحيدي إلى الإتيان بحدث مقترن بالسؤال أو ربما يكون هو الدافع إلى إثارة السؤال، ولا شك في أن هذا الأمر، ربما، يعطي للسؤال قوة وواقعية وجدوى، كما أن سرد حرف واقعي في أثناء السؤال يعطيه خصوصية.)، وتجدر الإشارة بعد ختام الباب الأول، إلى ملاحظة دقيقة أجمل بها الباحث شخصية التوحيدي، وكانت سببا رئيسا وراء كل أسئلته السابقة، وهي كون شخصية التوحيدي شخصية مستفزة (ذلك أنها تستفز بما لا يأبه به أكثر الناس، وتنبه عليه، وتستثيرها المشاهد، والأحداث للخاصة والعامة، فتحرك نهمه المعرفي فيأخذ بالسؤال)، وهي بلا شك ملاحظة قيّمة تظهر تمرس الباحث في فكر التوحيدي وتشربه لآرائه وأفكاره، علاوة على إطلاعه ومثابرته في كتب التوحيدي في حقيقة شهد على نفسه بها. أما الباب الثاني فقد أخذ حيزا صغيرا بالمقارنة مع الباب الأول، ويتمحور حول الفن في السؤال، وهو باب لا يقل أهمية عن سلفه كونه حوى مسائل فنية تكشف وتدرس أسلوب التوحيدي ورصانة كلامه وفصاحته، وأما الخطة المتبعة في هذا الباب فكانت تسير على خطى الباب الأول، إذ قسمه على مباحث أيضا، بدأها بدراسة وصفية بنيوية لأسئلة التوحيدي من حيث أدوات الاستفهام (ما، هل، أي، لمَ) بصورة رئيسة، وأدوات الاستفهام الأخرى التي أتت بصورة أقل حضورا، ثم الخبر، والخبر القصصي، وأحوال السؤال، والتقديم والتأخير، والحذف، والاقتباس والتضمين، وإيقاع السؤال وما يدور حوله من سجع وجناس وطباق. ثم يأتي مبحث الصورة البيانية ليظهر لنا الباحث فيها ضروبا من التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز العقلي والمجاز المرسل، وتتجلى قيمة الأخير في جانبين، الأول هو براعة أسلوب التوحيدي من خلال الأسئلة وطريقة صوغها، والثاني يكشف براعة وحذق الباحث في هذه الفنون، ولا سيما المتعلق منها بالمجاز العقلي والمرسل، لما يتطلبانه من فطنة وبعد نظر، وهو ما يحسب للباحث وينماز به عن بقية أقرانه. ولا يسعنا بصدد ذكر الباب الثاني أن نأتي بالأمثال والشواهد، فهي كثيرة جدا ولا تترك للقارئ أي استفسار في هذا الباب، كما أن الباحث تناول الأسئلة من الناحية الفنية بطريقته التي عرفناها في الباب الأول، فهو يحلل ويشرح ويسهب الحديث حتى يطمئن على فهم القارئ لها، لتنتهي عند ذلك رحلتنا في كتاب الظمأ للدكتور فائز طه عمر. وإذا كان هناك ما يؤخذ على الباحث في كتابه فهو كثرة الهوامش التي أثقل بها متن الكتاب، فليس هناك سطر تقريبا لم يخلُ من إحالة، مما قد يثير انزعاج القارئ قليلا، ولكن يشفع له في ذلك صرامته العلمية المعهودة، والتوثيق الدقيق والشديد لأقل الكلمات وإن بلغ المذكور كلمة واحدة أو كلمتين. وأمر آخر يؤخذ على الباحث هو ما أشرنا إليه قبلا من كيل الثناء والمديح حد المبالغة أحيانا مما قد يخرج الكتاب قليلا عن الجو الأكاديمي والمنهج العلمي الذي يبغي البحث والنظر الموضوعين، كقوله مثلا: (... من صياغة أفكاره وهمومه وهواجسه وقلقه صياغة فنية مؤثرة، اختار لها نوعا أدبيا، وشكلا فنيا، وإطارا تعبيريا، يعد هو مبتكره، أو فارس ميدانه من دون منازع، في الأدب العربي، عبر تاريخه الطويل، إن لم نقل في الآداب الإنسانية كلها)! وهناك ملاحظة أخيرة لا دخل للباحث فيها وليست من شأنه، وهي تلك الأخطاء الطباعية التي تناثرت في الكتاب، مما أخل بالمعنى في أحيان متعددة، وأثّر في قيمة الكتاب والجهد المبذول فيه، وهو نقد يوجه إلى الدار التي تكفلت بطباعة هذا الكتاب، إذ لا يظهر أثر المراجعة الدقيقة له قبل الطباعة، وندعو في ورقتنا هذه إلى طبعة ثانية للكتاب تصحح فيها ما وقعت فيه الطبعة الأولى من عثرات طباعية. وأخيرا فإن الظمأ هو عتبة رائعة وبليغة لعنوان الكتاب، كونها تعبر عن ذلك الظمأ المعرفي الذي تحلى به التوحيدي منذ بداياته الأولى، فجاء العنوان مطابقا ومعبرا وبليغا لهذه الحقيقة، وهي إشادة تذكر وتحسب لصاحبها الدكتور فائز طه عمر. وإذا كانت قراءتنا للكتاب المذكور قراءة للعلم والمتعة معا، فلا ريب أن النتيجة المتحققة هو الرِّي المعرفي من الكتاب، في مقابلة الظمأ العذب اللذيذ الذي تحلى به التوحيدي، وإنها لدعوة مرة أخرى لقراءة الكتاب للفوز بنصيب من المعرفة لا يستهان به أبدا.